

رؤية الذات والآخر في الرواية النسوية العربية المعاصرة

"رواية أنا وهي والأخريات" لجنى فواز الحسن أنموذجا

Seeing the Self and the Other in the Contemporary Arab Feminist Novel "I, She, and the Others" by Jana Fawaz Al-Hassan as a Model.

د / نورة حاج قويدر*

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله
(الجزائر)

noura.hadjkouider@univ-alger2.dz

تاريخ النشر: 2025/09/29

تاريخ القبول: 2025/09/24

تاريخ الاستلام: 2025/06/28

ملخص:

إن الذات الأنثوية في مجامعتها للعالم باعتبارها موضوعا يقع خارج دائرة أناها مستقلا عن كينونتها الداخلية في صراع دائم وجدل مستمر لا تنتهي معالمة إلا بانتهاء سيرورتها في هذه الحياة، ذلك الآخر الذي يتخذ أشكالا عدة في صور مختلفة فهو: المجتمع في عاداته وتقاليده، وهو الدين بكل تجلياته وقدسياته، وهو (الرجل) في تسلطه وجبروته... الخ من الأشكال التي تتخذ بعدا خارجيا يقاوم تلك القوة الداخلية للذات الأنثوية المبدعة التي سعت إلى تجسيده في كتاباتها الأدبية شعرية كانت أو سردية لتثبت حضورها، وتعكس رؤيتها الفكرية والثقافية للعالم، وتنفض بكل جرأة وتمرد على جميع الثوابت والمعتقدات الجامدة التي ما فتأت تدحض صحتها وتخرسه، فكانت هذه الرواية "أنا وهي والأخريات" تجسيدا لهذه الرؤية في محاولة من كاتبته إلى نقل صورة شبه نمطية تتشكل وفق معطيات ثابتة ومتشابهة تعيشها الأنثى في كل محطات حياتها. وقد سعينا في هذه الورقة البحثية إلى استخلاص ملامح هذه الرؤية في هذه الرواية في ضوء النقد الثقافي للوقوف على الرؤية الفكرية التي تسعى صاحبة الرواية إيصالها للمتلقين.

كلمات مفتاحية: الذات، الآخر، الكتابة السردية

Abstract:

The feminine self, in its confrontation with the world as a subject outside the circle of its ego, independent of its inner being, is in a constant struggle and ongoing debate with it, the features of which do not end except with the end of its life process, that other who takes many forms in its images, it is: society in its customs and traditions, religion with all its manifestations and sanctity, and (man) in his domination and tyranny... etc. of the forms that

*. المؤلف المرسل: د. نورة حاج قويدر.

take an external dimension that resists that internal strength of the creative feminine self that it sought to embody in its literary writings, whether poetic or narrative, to prove its presence and reflect its intellectual and cultural vision of the world, and to rise up with all boldness and rebellion against all the constants and rigid beliefs that continue to refute and silence its voice, so this novel "I, She and Others" was an embodiment of this vision in an attempt by its writer to convey a semi-stereotypical image that is formed according to fixed and similar data that the female lives in all stages of her life

Keywords: self, the other, Narrative stories.

1. مقدمة:

إن الذات في النص الروائي تتجسد في ضمير المتكلم الذي يكتبه المؤلف لكي يعبر عن ذاته من جهة، ويوضح معالنه من جهة أخرى، كما أنها تمثل الجانب الثقافي للكاتب، وتظهر من خلال التعبيرات التي يستخدمها، والإيحاءات الرمزية التي يوظفها، فالذات في النص الروائي هي المحور الدلالي الذي يرشد القارئ إلى الكشف عن ملامح شخصية الكاتب الحقيقية في الكثير من الأحيان. أما الآخر فهو المختلف في الجنس أو الانتماء الديني أو الفكري أو العرقي، وهو الصورة المقابلة للذات. وقد كان هدفنا في هذه الورقة البحثية إلى إبراز معالم الذات الأنثوية وعلاقتها بالآخر، وللوصول إلى هذا الهدف سطرنا الإشكالية التالية: كيف تشكلت معالم الذات الأنثوية في علاقتها بالآخر من خلال رواية "أنا وهي والأخريات"؟ وللإجابة على هذه الإشكالية استعنا بمعالم النقد الثقافي لما يتيح من آليات تساعدنا على الدراسة والتحليل.

2/ مفاهيم حول الذات وعلاقتها بالآخر:

1.2: مفهوم الذات: يمكننا القول بداية إن مصطلح الذات من المصطلحات التي تبنته مجالات وعلوم مختلفة بدءاً بالفلسفة كما أشار إلى ذلك أرسطو في قوله: "إن الذات الشيء هي موضوع الفلسفة الأساسية وهي ما لا يمكن، بأي شكل من الأشكال نسبته إلى موضوع، وهي التي يتصل بها نوعان من الأعراض: الأعراض الناتجة عنها، والأعراض المفاجئة غير المتوقعة"¹ فالذات حسب المفهوم الذي يطرحه أرسطو تكون في مركز اهتمام الأبحاث والدراسات الفلسفية، و تكون في تقابل مع الموضوع مختلفة عنه في أوجه كثيرة، على اعتبار أنه يمثل الظاهر المرئي بينما تكون الذات متخفية غير ظاهرة؛ لكنها تطرح مجموعة من الأعراض كما سماها هو، من خلالها نستطيع التعرف على طبيعتها و خصائصها المشككة لها، ثم تناقلته ميادين أخرى وعلى رأسها علم النفس الذي يعرف الذات على أنها: "ما به الشعور والتفكير، فتقف الذات على الواقع وتتقبل الرغبات والمطالب وتوحد الصورة الذهنية"². كما نجد لهذا المصطلح مكان في علم الجمال والنقد الأدبي، "فتجلي الذات هو اكتمال الخصائص الإنسانية العامة والفردية في الفنان أو الأديب وبروزها بموضوع وتعبير متميز من خلال الآثار التي يبدعها. ولا يتحقق الأمر إلا بالغوص في الأعماق واكتشاف ما فيها من كنوز عبقرية وعرضها فنياً.

2.2 مفهوم الآخر في المطارحات الفلسفية والفكرية والأدبية:

في الفلسفة تطرح كلمة الموضوع/الآخر على أساس أنه: "الشخص أو الشيء الذي تتجه إليه الدوافع الغريزية، والذي يمكن أن تجد فيه هذه الدوافع ما يشبعها في مقابل "الذات"³

لقد طرحت إشكالية (ذات/الموضوع) (الآخر) تلك الثنائية المتداخلة في إطار نظريات عملية الخلق الفني، فهناك من يفصل بينهما؛ لكن معظم الدارسين متفقون على الجمع بينهما على اعتبار أن "عملية الخلق الفني عملية امتزاج كامل بين الذات والموضوع/الآخر، وأن الموضوع/الآخر هو في أصله شيء خارج عن الذات يصبح بعد التجربة الفنية مثل قطعة السكر التي تذوب في كأس الماء فتبقى فيه، وتنتشر كل ذرة من ذراته... كذلك هو الحال في الموضوع أو الفكرة التي يصورها الأديب سوف تحتفي هي الأخرى وتصبح بكاملها صورة أو عملاً فنياً، يصبح من المستحيل بعدها فصل الموضوع/الآخر أو إعطاؤه قيمة بدون الصورة التي ترمز إليه والتي خلقها الفنان من ذاته."⁴ كما يؤكد بعض النقاد على أن الأجناس الأدبية في عمومها عبارة عن أشكال ذاتية؛ لكن ما يملكه ذلك الأديب أو المبدع من بعد معرفي أو علمي يتجه به نحو موضوع ما، و ما دامت تلك الذات في رحلة مع المعرفة، فإنها تتجه نحو موضوعها وتحاول الاندماج فيه، وبالتالي فهي تحاول أن تتموضع.⁵

وهناك طائفة أخرى من الباحثين من يرى بأن الذات الكاتبة قد تنفصم عن الموضوع/الآخر "من خلال غياب الآخر الإنساني، وواقعه عن عالم الذات الإبداعي غياباً يؤكد من ناحية قيام هذه التجربة الانفصامية في وعي الذات ويحيل تجربة الذات الإبداعية ناحية ثانية تجربة قطيعة مع الآخر، أو تجربة تجاوز له."⁶ فرفض الذات للآخر أو لموضوع ما هو إلا إعلان غير مباشر عن تحررها وخروجها من براكينه، حيث تتجاوز معلنه تمردها ونفورها لكي تجسد مواقفها استناداً على تجربتها الذاتية الإبداعية الخاصة، وهو ما دعا بعض الروائيين إلى استخدام بعض الأدوات والوسائل منها: الرمز والإشارة والتناص والمفارقة، لكي يمنحن لتجارهن تفرداً وخصوصية و"تجسد التجربة الكتابية للمرأة المبدعة، حاملة في ثنايا ذلك مرايا التلون على أكثر من أسلوب ودلالة، نتيجة طبيعة الحساسية النسائية، فيتشكل المعنى في بنية نصوصها مخاتلاً وفاتحاً أمام القارئ تأويلات لا متناهية."⁷

3. رهانات النقد الثقافي والكتابة السردية:

لقد جاءت الدراسات الثقافية كردة فعل على ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة وما بعد الكولونيالية، حيث سعت إلى الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة في الخطاب الأدبي، في حركة فاعلة بين الذاتية وعلاقتها بالمنحى الايديولوجي، لذلك كان من أولياتها البحث عن المهمل والهامشي بدل البحث عن الرسمي أو المؤسساتي الذي رسّخ تلك مفاهيم التي تقتضي الاهتمام المفرط بكل ماهو أدبي/جمالي بالمفهوم الرسمي للأدبي متجاوزاً في ذلك الخطاب الجماهيري والثقافي الذي أثبت حضوره وتأثيره أكثر من الخطاب الرسمي المؤسساتي، كما احتكرت تلك المؤسسات الثقافية الرسمية ذلك البعد الجمالي وجعلته شرطاً يصنعه الأديب، ثم يقوم الفعل النقدي بعد ذلك

بتسويقه وتعميمه على الذائقة الحضارية للأمة. في حين نجد أن الدراسات الثقافية عملت على تسخير ذلك البعد الجمالي في عملية عكسية وذلك من خلال البحث عن جماليات القبح في الخطاب الأدبي. كما تسعى الدراسات الثقافية أيضاً إلى توجيه دفة البحث إلى الكشف عن عمليات إنتاج الثقافة وتوزيعها واستهلاكها، من خلال قياس مدى تأثير تلك الأنماط الثقافية بغض النظر عما تحمله من أبعاد جمالية، وإنما للبحث عن قابلية تلك الأنماط للهيمنة والسيطرة على أذواق الناس لتشكيل في النهاية ثقافة جماهيرية عامة.

وفي هذا المنحى سعينا في هذه الورقة البحثية، لا للكشف عن المضمرة في الخطاب الروائي ليس باعتباره نسقا فحسب؛ ولكن لاستحضار وتمثل جدله وتجاذباته مع باقي الأنساق، بالصورة التي تكفل الوقوف على تموضعه. فبحثنا عن الذات في الخطاب السردي الروائي النسوي من خلال هذه الرواية، ووجدنا أن أنها تتمثل عدة صور منها علاقة الذات الأنتوية بالواقع، والآخر الذكوري (الرجل):

4/ جدلية الذات والآخر في رواية "أنا وهي والأخريات":

من خلال رواية "أنا وهي والأخريات" نسعى إلى تلمس تلك الرؤية التي جسدها الكاتبة جنى فواز الحسن في استحضار تلك العلاقة الجدلية للذات مع الآخر لذلك فهي مقسمة إلى:

1.4 علاقة الذات (الأنثى) بالآخر/الواقع:

تجلت علاقة الذات بالواقع في هذه الرواية بصورة يكتنفها الغموض والارتباك فسحر بطله الرواية التي كانت تعيش في كنف عائلة متكونة من أب ذو توجه اشتراكي وأم تقليدية رتيبة لا تحب التغيير في معظم مظاهر حياتها وإخوة، لكن بالرغم من وجود هذا الدفء العائلي إلا أن بطله الرواية "سحر" لم تكن تربطها بالواقع روابط مشتركة، وذلك بسبب أن والدها كانا بمنعاهما من الإتصال به خوفاً عليها فكانت تنسج منه وقائع وهمية في ذاتها وفي مخيلتها، ففي بداية حياتها كانت العلاقة مع الواقع الخارجي يكتنفها نوع من التشطي والانفصال عن الآخر فهي دائماً ما تكون في موقع المتفرج بسبب الجو العائلي الذي عاشته، هذا الأخير الذي مارس سطوته على ذاتها فسلبها عفويتها وطبيعتها، تقول: "لطالما وقفت على مسافة بعيدة من حياتي وتركتهما تحدث، لعبت دور المتفرج فيها انفصلت بشكل أو آخر عن الواقع، كأنه لا يعنيني وكأن هذه "الأنا" التي تعيش فعلاً تقابلها "أنا" أخرى تراقب الحياة وتسجلها.. كنت أفكك الحياة وأعود لانسج منها عوالم أخرى، ولأني صريحة أحببت الأشياء في داخلي فقط."⁸ فقد فرضت العائلة تقييداً على ذات سحر فلم تمارس طفولتها بشكل طبيعي، بسبب الجو العام الذي كانت تعيش فيه، فاليبيت منظم ومرتب بشكل دقيق طيلة الوقت، وسلطة الوالدين وسيطرتهم في أدق تفاصيل حياتها، والقيود المفروضة عليها زادت من هوة الاتصال بالعالم الخارجي، كما زاد من عمق المسافة بينها وبين الآخر.

وبالرغم من كون والدها شيوعي في تفكيره لم يكن لذلك التحرر مكاناً في حياة سحر من خلال منعهم من الاستمتاع بمظاهر العيد. فكل ذلك حمل سحر على فعل المقاومة والانسلاخ عن الآخر "والذي لم يتحول إلى

إنسان بالنسبة إلي إلا من خلال ساعات اللهو واللعب عدا ذلك كنت أراه كسائر الأشياء والكائنات الأخرى، مفصلاً عني وكنت أرفض ذاك الجفاء والانشغال المزيف الذي يستتر وراءه، فأطرد صورته من ذهني تماماً كما فعلت مع والدتي، ألقيت المحيطين بي بعيداً وانشغلت باللهو مع ذاتي.⁹

2.4/ جدل العلاقة بين (الذات/ الأنثى) و(الآخر/ الرجل):

إن تلك العلاقة الأزلية بين حواء وآدام لاتزال تجذبنا على مرّ العصور والأزمان، فمكانة المرأة في المجتمع مرهونة بشكل شبه كلي على الجنس الآخر (الرجل)، حيث أسهمت تلك التبعية والدونية استلهاً الخطاب الروائي النسائي، ففي هذه الرواية نجد ذلك الحضور للآخر/الرجل بشكل مكثف يسري في وجدان بطلة الرواية "سحر" منذ نشأتها الأولى، تقول: "توالت عادي باستحضار الرجل في رأسي إلى أن أغرق في نوم عميق، حتى بت بالرغم من ضيق وجودي الفعلي أغوص في أماكن منفية عني، ليس فقط حسياً، بل وجدانياً وفكرياً. كنت في حاجة شديدة إلى الآخر، ولو كان مجرد شبح، أو وهم اختلقته ليخفف من وطأة الوحدة... وفي بداية علاقتي مع أوهامي، كنت أنتظر ذلك الآخر ليملي عليّ ما أفعل، فأكون بذلك دوماً تحت إمرة سلطة عليا ترشدني وتشعري بقوتها وشراستها.. كان من الممكن ألا يكون ذاك الآخر واقعا، ولكن لم يمكن ممكناً ألا أوجده فقد كان كغيمة دخان يتسجد أمامي في كل لحظة، ويكسو فضاء الغرفة لأبد في مطاردته حتى يتبخّر"¹⁰، فوجود الرجل في حياة سحر لم يكن كمالياً؛ لكن بصورة ضرورية وحاجة نفسية ملحة تقتضي وجود الأمان والسكينة في النفس.

إن تلك الصورة النمطية المبتدلة لعلاقة المرأة بالرجل، صورة عهدناها في الكتابات النسائية التي في الغالب تكون مستمدة من عالم الحريم في اجتماعاتهم ولقاءاتهم المستمرة، فذلك الآخر (الرجل) في هذه الرواية اختزل في الذات، وأصبح ملتجئاً بها إلى حد التداخل، تقول: "ربما كان مجرد رفض لكل ذاك الجفاء الذي عرفناه، أعرف أنني كنت أهرب إلى الرجال لأدثر بأجسادهم، وأروي عطشا إلى الإعتراف بشخص ما يدعى "أنا"... كان جميع من حولي مقيدون بأنفسهم، فتعثر عليهم العيش؛ بينما تركت الآخر المختلف يحدث في داخلي على قدر ما كان يصعب عليّ أن أمد له يدي وأضحك معه، وكنت أحتاجه بشدة وأخافه لدرجة إنكاره. انفصلت عنه فسكنني ويبدو الأمر حين أقر به ضرباً من الجنون"¹¹، فقد جسدت لنا هذه الرواية رؤية الكاتبة علاقة المرأة بالآخر (الرجل) في صورة متناقضة، فإنكار الجنس الآخر (الرجل) ورفض وجوده في حياة الذات الأنثوية يجعله يسكن بشكل أو بآخر في برائين ذاتها؛ بل يصبح جزء لا يتجزأ منها.

إن وجود تلك المفارقة في العلاقة التي تربط بين ذات البطلة (سحر)، والآخر (الرجل) كان منبعه تلك التركيبة أو التوليفة العائلية التي عاشتها منذ صغرها، فذلك الأب دائم السفر، بالإضافة إلى توجهه الإشتراكي الذي أخذ بعداً شديداً عن واقعه ومجتمع، بالرغم من انحداره من بيئة مسلمة محافظة في شمال لبنان، وشخصيته النرجسية المتعالية جعلت من تلك العائلة محط نفور واحتقار من الآخرين، فتبنيه لتلك الأفكار الشيوعية واهتمامه

المفرط بالكتب والقراءة وتتبع الأحداث السياسية، لم يكن إلا انعكاسا لفشله وخيياته في التواصل مع الآخرين، خاصة في تلك البيئة التي كانت تعج بالتفكك الحزبي والحروب، فكان حلمه بوجود عدالة يتساوى فيها الفقير مع الغني، ورفضه لكل ما هو موروث وتمرده على الأعراف والمعتقدات من أجل الشعور بالإختلاف والتميز عن الآخرين، فحاجة سحر إلى الآخر/ الرجل، ورؤيتها للحياة البائسة التي عاشتها والدتها مع زوج منشغل عنها، كل هذه المظاهر جعلت من شخصية سحر في اضطراب وتشتت بين الحاجة والواقع.

كما انعكس وجود الآخر (الرجل) في الذات الأنثوية في هذه الرواية إلى شعور يهدد بقاءها في هذه الحياة "لم يكن تعايشي مع الواقع داخليا وحقيقيا بل شيئا يلتف حولي أدور فيه من موقع الاشتهااء والرغبة القصوى بأن أكون، بأن أسمع أنفاسي، بأن أشم رائحتي، وأتلمس شعري لأتأكد أنني هنا في مكان ما مع سامي... كان مخلصي الذي سينتشلني من بؤس والدي، ويسمح لي بأن أحقق استقلالية ما.... تحولت نغمتي إلى ذلك العصيان السري ولأني كنت أقوم بضد ما توقعوا أو طلبوا مني، حسبت ذاك التناقض بين ألا أكون وأصبح فجأة كيانا محاطا بسامي... كنت سأتوقف أن أكون مجرد فتاة من عامة الناس؛ بل سأصبح زوجة أحدهم سيعرف رجل بأهميتي وسيتمتع بمشاهدتي وتملكي، وسأستمع بإلقاء عديميتي عليه، لكي يتلقفها وسأشعر بالراحة وأنا أهبه ذاتي التي أهرب منها ليحملها، أو لأصير جزءا منه، وبالتالي لن يتعلق وجودي بي فحسب؛ بل سيصبح ذاك الآخر وجهة أتبعها فأتلخّص من عناء الحياة اليومية، وأبلغ درجة معينة من الأمان لأني لن أكون موضع ذاتي".¹² . فقد وجدت سحر في سامي المخلص والزوج الذي سوف ينتشلها من براثن الضياع والعدمية التي كانت تعيشها. إن تلك الرؤية التي جسدها الروائية في هذا المقطع، من حيث كون ذلك (الآخر/الرجل) يحمل صلاحية الوصاية الكاملة على الذات /الأنثى، ويفرض بنود الحماية عليها لا من المجتمع فحسب؛ بل حتى حمايتها من نفسها التي هي بين جنبهها، إنما هي تجسيدا لتلك الرؤية النمطية التقليدية التي عهدتها المرأة العربية منذ الأزل، فالرجل هو ذلك الكيان الذي لا ينفصل عن المرأة مهما بلغت من علو ورفعة. فقد كان لتلك التداعيات التي فرضها المجتمع في جميع مراحلها من شأنها أن تحول المرأة من وضع السيادة والتصدر إلى وضع الهامش، فهي لا ترقى بأن تكون كائنا مستقلا بذاته اللهم إلا في حدود ضيقة وفي منعرجات تنتهي دوما في خدمة مصالح ذلك المركز (الآخر/الرجل).

3.4/ جدل العلاقة بين الذات/الأنثى والجنس:

يعتبر الجنس من بين أهم المواضيع التي جسدها الكتابة النسوية؛ بل إنه يعد من بين أهم مفاصل الرواية، لأن الكاتبة (الروائية) تسعى جاهدة إلى إيصال الصورة المكتملة للذات الأنثى، وتحاول جاهدة الإمام بكل تقاطعاتها وفي مقدمتها الحديث عن الجنس، باعتباره عنصرا مهما في إحداث تغيرات جوهرية في عالم الأنثى. فنجد أن الحديث عن الجنس أخذ مساحة لا بأس بها في هذه الرواية حيث سعت الكاتبة جنى فواز الحسن إلى تقديم رؤية مغايرة لهذا المعطى السردى، وقدمته في حلة يكتنفها التجديد والتميز، لأن هذا الأخير

أصبح يشكل في منعطفاته كينونة المرأة، ويفرض بدرجة متساوية سلطته على الآخر/الرجل، بحيث لا يستطيع هذا الأخير الخلاص منها بأي شكل من الأشكال، وهو ما حدث مع البطلة سحر "في كثير من المرات كنت أبكي من الرغبة التي اكتشفت مع الوقت أنها لم تكن رغبة جنسية؛ بل رغبة في الوجود، في إثبات كينونة ما، وكان جسدي يغث.... في استيهاماتي صرت أدور دورا حول نفسي وأشعر بلسان الآخر الذي يبذل نهد فيحيطه بباطن يده كمن يحمل ماسة صغيرة.¹³ فالجنس من خلال هذا المقطع يعد سلاحا في يد الأنثى يمدها بتلك القوة التي تجعلها في مستوى واحد مع قوة الآخر/الرجل، فرغبتها هي في الجنس تجعل منها وبشكل عكسي في سيطرة كاملة على الطرف الآخر/الرجل، بحيث يكون خاضعا لها، لا يستطيع الانفكاك منها، بل يطلب وجودها في كل وقت.

وفي كثير من الأحيان تفقدنا تلك الرغبة وتضعفنا وتجعلنا في أمس الحاجة إلى الطرف الآخر، مما يضعف قوة الأنثى ويقضي على كبريائها تقول: "الجنس كان بالنسبة إلي ذاك العالم السفلي الذي سيؤدي بي إلى الجحيم والحضيض، فأخسر مثالي الموروثة عن أمي، وشعرت أحيانا برغبة بأن أكون مترفعة عن كل ما هو دوني ومادي، المضاجعة ضمنا لأضمن بذلك كياني الأنثوي الاجتماعي... تلك كانت طريقي في الهروب من الواقع منذ الصغر، أن أتخيل أشخاصا آخرين وحياة أخرى حتى أغفو (...). بقي الرجل بالنسبة إلي حاجة ملحة تسكنني ولا أصل إليها... كنت بحاجة إلى جسد الآخر، أنا أيضا لاشباع نهمي، لأشعر بالفرح ثم أتمكن من الضحك." ¹⁴

إن ذلك الالتصاق والالتحام بين جسدين أثناء ممارسة الجنس، من شأنه أن يزيد من قوة التواصل مع ذلك الآخر، لتصبح الذات/ الأنثى سيدة الموقف والمرشد للآخر (الرجل) الذي أضلته الحياة، فنفرض قوتها عليه من باب الإنتقام لذاتها، فهي المتحكم في تفاصيل المضاجعة ولولاها لما شعر الآخر برجولته وفحولته تقول: "خلعت عني ملامح المرأة الكثيرة وارتديت جرائتي التي تعلمتها من الجنس، أمسكت بيدي ورحت أمرر أصابعي على ظهر كتفه... اقترب مني وبللت شفتاه عنقي، ثم انتقل لسانه إلى أسفل أذني أغمضت عيني، وصرت أطلق تأوهات خفيفة، كلما سمع صوتي قبلي أكثر، انتقل إلى نهد وراح يمزج رأسه فيهما كطفل صغير. غرست أظفاري في ظهره... تشابكتنا الأيدي وولجني، كان في داخلي وكنت متحدة به." ¹⁵

تلك السيطرة والقوة التي تكون فيها الأنثى أثناء ممارسة الحب لها أثر السحر على الآخر / الرجل تقول: "كان هو الآخر الذي يشكل تجسيدا لرغبة جنسية يمكنني إدراكها، ولكنه لم يكن يوما الرغبة التي حاولت العبور إليها" ¹⁶، فرغبة الذات/ الأنثى لم تكن في الجنس، فهذا الأخير ما هو إلا وسيلة لعبور ذلك الجسر الذي من شأنه أن يوصلها لذاتها، تقول: "تحول سامي شيئا فشيئا من ذاك المطلق الذي غرقت فيه إلى رجل أمقته، وأتمني التحرر من كياني المزروع فيه أو كيانه الذي أصبحته... فمنذ لحظة حملي الأول، كنت ملزمة بأن أعيش على فكرة الأبناء، وهذا ما كان متوقعا مني، ولم أجرو يوما على مخالفة المتوقع، أصبحت أمي... كان امتلاك سامي وسطوته المفروضة علي، وضره المتواصل ما حولني إلى فرخ يتغذى عليه الآخر ويكبر." ¹⁷

فرابطة الزواج في حياة (الذات/الأنثى) تعد من بين الطرق التي تضمن لهذه الأخيرة كينونتها في هذا المجتمع لذلك تسعى جاهدة للحصول عليها، ليست رغبة في الآخر/ الرجل؛ وإنما إثباتا لشرعيتها في الوجود وفرض أحقيتها في هذا العالم، تقول: "أدركت حينها أن لحظة الإحتفال بالبنات لا تكون ساعة ولادتهن؛ إنما ساعة عثورهن على زوج، وفكرت بكل الفتيات اللواتي يقال عنهن (عوانس) فتمر حيواتهن من دون ابتسامة رضا قد ترتسم على ملامح أفراد عائلاتهن"¹⁸ فالزواج ذلك الرباط المقدس من شأنه أن يمنح صكوك المحبة والرضى من قبل الآخرين على هذا الكائن (الأنثى)، لذلك فهو دائما الحلم الذي لا تنتهي مرادته في كل مرحلة من مراحل حياة الأنثى.

إن رحلة البحث عن الذات لا تزال مستمرة في هذه الرواية فبعد بحث مضني وشاق في حياة البطلة "سحر" التي لم تجد في الزواج ما يروي تعطشها لتلك الذات، تقول "بعد أشهر طويلة وسنوات من الزواج الذي اتخذت فيها حالة العدم شكلا آخر متصلا بواقع مؤلم بعيد عن كل ما نسجت في خيالي، كان لابد من ان أخرج من الأسر اليومي الذي كبني وأتحول إلى شيء آخر"¹⁹، فقد غاب ذلك الحلم الذي كان يطاردها باستمرار؛ بل إن الزواج ما فتأ أن فاقم من حدة أزمته وجعلها في هامش العالم، لأن دورها بالكاد اقتصر على خدمة ذلك الآخر/ الرجل لا خدمة نفسها هي، فأصبحت تمارس عادات نمطية مثل: الجنس، والإنجاب، وتربية الأطفال... إلخ، من الأشياء التي زادت من مظاهر التبعية والانسحاق في ظل الآخر/ الرجل، فسعت جاهدة إلى البحث عن عمل خارج المنزل في شركة التأمين، علما تجد ظالمتها، ومن خلاله تعرفت على عشيقها (ربيع) الذي أصبح بدوره وقودا يزيد من امدادها بشعور كونها إنسانة لها كامل الحق في العيش والوجود، ولكي تتخلص من وطأة الزوج، تقول: "كان عشقي المحرم هو عين الصواب وكأني من دون هذا الهوى أفقد رشدي ولا أجد للتوازن سبيلا."²⁰

ففي هذه الرواية أرادت كاتبته أن تتخذ من تلك العلاقة الرسمية بين الآخر / الزوج (سامي) مع البطلة سحر مجالا يأخذ منحرجا مختلفا عما كان في السابق، فبعد أن كان الزوج هو الملاذ والمنقذ لحياتها أصبح يمثل علامة دلالية فارقة تقر بها من النهاية تقول: "كان لابد أن أعتنق أسمى الأفكار كالإنتحار بين أحضان رجل أرفضه، لأن المدينة وشوارعها وجامع المنصوري الكبير الذي تعلو قبته في السماء، ينص أن سعادتي هنا، لأن أمني تقول أن حياتي هنا، ولأن صوت اللذة في داخلي هو شيطان رجييم سفلي أرسله الله لاختبار صبري"²¹ إن وجود ذلك النسق المضمّر في ذهنية المجتمع والذي يفرض سيطرته على الذات الأنثوية، بأن يجعل للآخر/ الزوج مصدر سعادة الأنثى وفرحها في هذه الحياة، من شأنه مقاسمة أحلام البطلة "سحر" وتخيلاتهما منذ الصغر، ولا يقتصر هذا الشعور على البطلة فحسب؛ بل على جميع بنات جنسها، لأن هذا النسق المضمّر يسري في كل المجتمعات، العربية منها خاصة وعلى مرّ العصور والأزمان عامة.

كما كان لحضور الزوج في البيت إعلانا صريحا على موتها، وهذا كله سيدخلها في متاهات "الحياة الزوجية" القاسية، التي ستكون عاملا تعزيزيا لفساد المجتمع وتفككه، تقول "تعرضي للذل والمهانة في زواجي جعلني أفكر لماذا لا أقوم سوى بإرضاء غيري. جعلني أسأل ملياً ماذا أريد أنا؟"²²، حيث أرادت الكاتبة الإشارة إلى

جزء مهم في مسار العلاقة الزوجية التي تبدأ في كثير من الأحيان بذلك الحب المفعم والجارف، ثم تبدأ في الإنحيار من خلال تلك السلوكيات من عنف وتهميش والذي يكون في كثير من الأحيان سببا من أسباب نشأة الخيانة، التي تفقد المرأة معها الجزء الأخير من حياتها، تقول: "عندما ضربني كنت تلك الذات العاجزة عن المواجهة والمنسحبة وراء الخوف وسلطة موهومة لرجل عصبي المزاج، يحفر لنفسه في باطن جسدي أوكارا أو ممرات ليطفئ شهواته، وأنفاسه وكبت منها."²³ فالرواية تظهر لنا تلك الهيمنة الذكورية في حياة الأنثى، فسلوك العنف من شأنه أن يؤصل ويغرز جذور الآخر/الذكر في كل تفصيلة من كيان الأنثى.

إن وجود العشيق في حياة البطلة سحر لم يكن إلا هروبا من حالة الضياع والفراغ التي كانت تعيشها تلك الذات "هربت من سامي إلى ربيع، فهل أهرب ن ربيع يوما؟... وما هذه الحاجة إلى التخلص من نفسي، هل كانت فعلاً رغبة في التملص من الذات أم رحلة البحث عنها؟".²⁴ فممارسة الحب "الجنس" مع الزوج ثم مع العشيق ما هي إلا محاولة للتملص من متاهات النفس وضياعها، وإعلانا للاتصال المباشر مع الطرف الآخر / الرجل .

4.4/ محاولة اكتشاف الذات :

إن الرؤية التي ختمت بها الروائية رحلة البحث عن الذات الأنثوية، تركت في طياتها بعدا فلسفيا لا نكاد نلمسه أو نشعر بوجوده المادي، إلا من خلال صورة لتشطبي تلك الذات وانفصالها عن نفسها في سبيل البحث عن ذات أخرى، فلم تصبح الأنا واحدة وإنما أصبحت متعددة تقول: "كانت المرأة الأخرى تقف على قمة عالية، لم تكن وحدها واقفة رافقها رجال كثر. كان من بينهم والدي وزوجي وعشيقتي، حاولت أن أنظر إليها لأرى ماذا تفعل ، ولأشير إليها أي هنا في مكان ما، أردت أن أتفرج عليها من سئختار، إذ بها تتأبط شخص رجل مجهول الهوية، وتسير معه بهدوء، انزلت إلى الهاوية واختفت معه"²⁵ فحالة الانشطار عن الذات الذي أصابت البطلة سحر أثناء مرورها بحالة من الهوس، والتي اكتشف من خلالها أن ذلك الصراع المستمر مع الآخر لم يكن في حقيقته إلا صراعا مع ذاتها في محاولة مضنية لاكتشافها وتحقيق وجودها؛ لكن وبالرغم من الجهود التي بذلتها البطلة سحر في سبيل البحث عن ذاتها إلا أنها رفعت في النهاية راية الاستسلام، فأقدمت على الانتحار لوضع حد فاصل مع تلك الرحلة المتعبة، فالموت أصبح كائنا بالنسبة لسحر "الموت ذلك الكائن الذي صبوت إليه، لم يقطفني أيضا، تركني معلقة بين آلات المشفى، حيث غسلوا معدتي المضطربة كي لا أحتضر. ولما شارفت على وضع حد لحياتي، شديدة الوهن، خاضعة لأزمان من العلل التي لا داء لها سوى كسر تلك الذاكرة، كسر تلك الأنا التي صنعوها واحدا تلو الآخر من مآسيهم"²⁶، فحتى الموت لم يسعفها في الانعتاق من تلك الذات 'الأنا' التي صنعها الآخرين وشكلوها بأيديهم التعيسة التي جعلت منها ذاتا مرتبكة خائفة وهائمة في ضروب ومتاهات الحياة باحثة بشكل مستمر عن الطمأنينة والسكينة.

5/ خاتمة:

يمكننا القول في نهاية هذه الورقة البحثية إلى أن مفهوم الذات قد أخذ تعريفات عدة وتجاذبتة الكثير من المجالات بدء بالفلسفة وعلم النفس وانتهاء بالنقد الأدبي الذي لخص مفهوم الذات في اكتمال الخصائص الإنسانية العامة والفردية في الفنان والأديب. كما يقوم البناء السردي في الرواية على ارتباط الذات بالآخر، فمن خلالهما يمكن تحديد معالم الهوية، وتكمن أهمية الآخر في توضيح معالم الذات، ومعرفة مكوناته.

وقد ساهمت الدراسات الثقافية في الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة في الخطاب الأدبي، وقد أظهر الخطاب الروائي النسوي في ظل الدراسات الثقافية معالم الذات الأنثوية في علاقتها مع الآخر في رواية "أنا وهي والأخريات" نموذجاً تجسد صور عديدة بدء بالواقع الذي اكتنفه الغموض والضبابية، وانتهاء بالآخر الذكوري (الرجل) هذا الآخر الذي فرض هيمنته وأحكم سلطته على الذات الأنثوية في جميع مراحل حياتها، بدء بعلاقة البطلة مع والدها الشيوعي، الذي كان يمارس نظامه الأبوي في استعلاء وغطرسة محاولاً الحفاظ على الممارسات التقليدية التي كان يعيش عليها أجداده السابقون، في إطار سلسلة متواصلة يتعاقب على توارثها الأجيال ويعيشها معظم فئات المجتمع. كذلك صورة الآخر الذي مثله الزوج، الذي يشكل بدوره المنقذ والهدف لكل أنثى، كما يمثل الحياة الكلية للمرأة، بما يحققه من سعادة أبدية سطر معالمها المجتمع وما يفرضه من عادات وتقاليد جعل المرأة ترى فيه الملجأ الوحيد الذي يتحقق من خلاله وجودها هذه الحياة. ومنه فرواية "أنا، هي والأخريات" جاءت لتعبر عن الذات النسوية في ظل سلطة المجتمع الذكوري وتفسر واقعا تعيشه المرأة في بعض المجتمعات.

6/ الهوامش:

¹ جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1: (1979)، ط2: (1984)، ص: 116.

² مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007، ص321.

³ مراد وهبة، المرجع السابق، ص: 633.

⁴ محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، محمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية، بيروت، ص: 37.

⁵ ينظر: صباح السويغان، دراسة: جدلية الذات والموضوع في شعر سعاد الصباح، الموقع

الإلكتروني: www.alraimedia.com.

⁶ عبد الواسع الحميري، الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات، لبنان، ط1: (1999)، لبنان، ص:

75.

⁷ رزيقة بوشلقية، التشكيل الفني في الشعر النسائي الجزائري المعاصر، ميم للنشر، الجزائر، ط1: (2015)، ص: 76.

- ⁸ جنى فواز الحسن، رواية : "أنا وهي والأخريات"، دار العربية للعلوم ناشرون، بيروت / لبنان، ط1: 2012، ط2: 2013، ص07، 08.
- ⁹ مرجع نفسه: ص: 11
- ¹⁰ مرجع نفسه ، ص: 30
- ¹¹ نفسه ، ص: 30،31
- ¹² نفسه، ص:42،43
- ¹³ المرجع سابق، ص: 44
- ¹⁴ نفسه، ص: 48
- ¹⁵ المرجع السابق، ص: 125
- ¹⁶ نفسه ، ص: 49
- ¹⁷ نفسه ، ص: 53، 54
- ¹⁸ نفسه ، ص: 42
- ¹⁹ نفسه ، ص: 77
- ²⁰ المرجع السابق، ص: 82
- ²¹ المرجع نفسه ، ص:66
- ²² المرجع نفسه ص:82
- ²³ المرجع السابق ص:104
- ²⁴ المرجع نفسه ، ص: 111
- ²⁵ المرجع نفسه، ص: 187
- ²⁶ المرجع نفسه، ص:197

7/ قائمة المراجع:

1. جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1:(1979)، ط2:(1984)، ص: 116.
2. جنى فواز الحسن، رواية : "أنا وهي والأخريات"، دار العربية للعلوم ناشرون، بيروت / لبنان، ط1: 2012، ط2: 2013، ص07-197.
3. رزيقة بوشلقية، التشكيل الفني في الشعر النسائي الجزائري المعاصر، ميم للنشر، الجزائر، ط:1(2015)، ص:76.
4. عبد الواسع الحميري، الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات، لبنان، ط:1(1999)، ص: 75.

5. محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، محمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية، بيروت، ص: 37.

6. مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007، ص 321، 633.

7. ينظر: صباح السويفان، دراسة: جدلية الذات والموضوع في شعر سعاد الصباح، الموقع الإلكتروني: www.alraimedia.com.